فلسفة الجمال والفن عند الحركة السوفسطائية

د. إفطيمة الهادي داعوب(*)

قسم الفلسفة – كلية الآداب

جامعة الزاوية

مقدمـــــــة:

كانت أثينا حيث ترعرعت حركة السفسطائيين وتطوّرت قد تحوّلت في القرن الخامس قبل الميلاد إلى نظام الحكم الديمقراطي الذي حل محل السلطة الأرستقراطية القديمة في كثير من المدن اليونانية، وأفسحت الديمقراطية أمام الشعب –وهم المواطنون الحقيقيون– المجال لتشترك في حكمها اشتراكاً فعالاً، وتُبدي رأيها في قوانينها وأعمالها ومؤسساتها، فلا غرابة إذن أن تتغير القيم الاجتماعية وتتبدل مقاييس المجد والفخر. إذ أصبح الأثيني يفتخر بقدرته على التفكير والتعبير وعلى العمل والمشاركة في المناقشات أكثر من افتخاره بالحسب والنسب أو بانتمائه إلى

(*) Email: Zenb_daaub@yahoo.com

الطبقة الأرستقراطية وأخذت المعتقدات تفقد نفوذها في الطبقات المثقفة، واتسعت حقول المعرفة، وكثرت التيارات الفكرية، وتشعبت الحاجيات الاجتماعية والعلاقات المختلفة على الصعيد الداخلي والخارجي حتى أصبحت الأقوال لحكماء الإغريق الأولين غير كافية لتنظيم الحياة والمجتمع، فكان لابد من قيام فكر سياسي وأخلاقي ومعرفي يتصل بالإنسان الفرد وبمشاكله وحاجياته المختلفة وطموحها المتنوعة وتعليمه الحكمة وشؤون تدبير حياته، وصاحب هذا حضور عدد من المحاكم والمجالس الشعبية التي لعبت دوراً هاماً للغاية في الصراع بين الأحزاب والفئات في أوساط السكان الأحرار، فشاع الجدل السياسي والقضائي، وكان لابد للشاب أن يتعلم فنون الإقناع والجدل والنقاش كما كان يتعلم الشاب الأرستقراطي فنون المصارعة والرياضة البدنية، فكان من الطبيعي إذن في هذا الجو الديمقراطي أن يتكاثر المعلمون، وأن يهتموا بالإنسان والأخلاق والسياسة، وأن يتركوا جانباً تلك الظواهر الطبيعية التي كانت محور الفلسفة من قبل، وأن يحذقوا فنون "اللوغوس" والخطابة، وأن يعلموا الشباب الاعتماد على النقد والشك والعقل الفاحص، وأن يتلقنوا أساليب المحاجّة ووسائل استمالة الجمهور، وقد اضطلع بهذه المهمة: "معلمون للفصاحة والبلاغة مثل جورجياس، كما كان هناك معلمون للسياسة مثل بروتاجوراس، يلقنون تلاميذهم فنون إدارة شؤون المجالس، وكان هناك معلمون أيضاً للجدل والنقاش مثل يروديكوس ولهذا الفن فوائد واضحة في المحاكم حيث يتعين على المتهم أن يدافع عن نفسه، وقد استطاع معلمون أن يعلموا الناس كيف يحوّرون الحجج ويفحمون الخصوم"[1].

وكان هؤلاء المعلمون الجدد لا يكتفون عادة بتلقين المعارف السياسية والحقوقية، بل ويربطونها بالمعتقدات والقضايا الفلسفية الشاملة، فكانت ولادة الجدل الفلسفي (الديالكيتك) والنثر الأتيكي الفني (الجدل الخطابي) على أيديهم، فالذين يمارسون النوع الثاني يضعون الفوز نصب

أعينهم، على حين أن أصحاب الجدل الفلسفي يحاولون الوصول إلى الحقيقة، وهذا في الواقع هو الفارق بين المجادلة والمناقشة[2].

ودُعي هؤلاء جميعاً بالسفسطائيين، أي الحكماء، أساتذة الحكمة، ثم جاء الكتاب المعادون للديمقراطية ومؤسساتها، فسحبوا عداءهم على المعلمين الذين يعدون الشباب لمزاولة السياسة والقضاء، وصاروا يطلقون اسم "السفسطائيين" على أولئك الذين لا يهدفون إلى الحقيقة، بل يتوخون الدعم المأجور لوجهات نظر وأقوال كاذبة في أغلب الأحيان.

ولقد جرت العادة على التمييز بين السفسطائيين، وهنا نجد فيلوسطراط في كتابه "حياة السفسطائيين" يفرق بين السفسطائية الأولى التي تمزج الخطابة بالفلسفة، والسفسطائية الثانية التي تصف حياة الأغنياء والملوك والأمراء، بالإضافة إلى اهتمامها بالبلاغة والخطابة، وهي لا تريد وضع فلسفة جديدة، بل نراها تتصل فلسفياً بمدارس متعددّة كالريّبية "والكلبية والأبيقورية والرواقية والأفلاطونية"، اما المدرسة الأولى فهي التي وضعت الأسس الصحيحة للقول الفلسفي، ومن هنا لابد أن نهتم في بحثنا هذا بالسفسطائيين الذين عاصروا سقراط؛ لأن عطاءهم الفلسفي واضح، ومكانتهم في تاريخ الفلسفة عظيم، ولابد أن نترك جانباً كل من لم يهتم بالفلسفة، وخصوصاً في الجمال والفن.

ويمكننا في هذا البحث أن نتتبع بعض الأمثلة لهذه الفلسفة الجمالية الموجهة لفن القرن الخامس ق.م عند أعظم سفسائية هذا العصر؛ بروتاجوراس الأبديري وجورجياس الليونتيبي وغيرهما؛ وذلك لمعرفة مواقفها في المسائل التالية: لماذا ارتفع "فن الخطابة" عند السفسطائيين جميعاً إلى مرتبة العلم بمعناه الصحيح؟ هل الفن هبة الآلهة أم أنه من صنع الإنسان؟ ما هو موقف أفلاطون وأرسطو ضد منافسيهما من السفسطائيين؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها

يستدعي الأمر بالضرورة تحليلاً داخلياً لفلسفة الجمال والفن عند الحركة السفسطائية من خلال الموضوعات الآتية:

1. طبيعة السفسطائية وفن الخطابة.
2. أعلام الحركة السفسطائية وفلسفة الجمال والفن.
3. تعقيب.
4. الخاتمة.

1- طبيعة السفسطائية وفن الخطابة:

كان التعليم التقليدي في بلاد اليونان القديمة يتألف من الموسيقى والشعر والدراما وبصفة عامة الموضوعات التي كانت ترأسها ربات الجمال التسع)[3] ومن الألعاب الرياضية، وفي الأوساط الاجتماعية الأكثر تهذيباً في القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت الحاجة إلى مزيد من التعليم، وكان السوفسطائيون هم أولئك الرجال الذين قدموا هذا التعليم العالي، فكانوا أساتذة جامعيين متجولين يتنقلون من بلد إلى بلد يلقون سلسلة من المحاضرات وبخاصة فن الخطابة وفن النجاح في الحياة، مقابل أجور يتقاضونها من طلابهم. وهكذا لم تكن لفظة سوفسطائي[4] في الأصل من ألفاظ التحقير بأي معنى من المعاني، وإنما كانت تعني شيئاً يشبه ما تعنيه كلمة "الأستاذ" أو المعلم؛ ذلك أن التعاليم العملية والنصائح الأخلاقية كانت تمثل الأداء الرئيسي للشعراء، فكان (صولون شاعراً استطاع بفضل تأثيره أن يجتذب الأنظار إليه وأن يحقق مجداً سياسياً، وكتب (هزيود) قبله ملحمته "الأعمال والأيام" والتي تعد عملاً أخلاقياً استطاع أن يضعه في منزلة عليا بين أكابر الشعراء[5]. والأمثلة كثيرة، فكان ثيوجينوس مليئاً بالمثل الأخلاقية العامة والخاصة، وبارميندس وأنباذ وقليس كانا شاعرين أيضاً، وكتاب الدراما (كوميديا وتراجيديا)

في القرن الخامس كانوا يعتبرون أنفسهم، أصحاب رسالة تعليمية، كما أن الحوار أو المساجلة التي دارت بين "أسنجيلوس" و"يوربيدس" في "هادس"[6] كانت قائمة على أسس أخلاقية؛ ذلك أن الشاعر عليه أن يظهر الجوانب المشرقة والخبرة على المسرح، أما الجوانب المظلمة أو الشريرة فعليه إخفاؤها وعدم إظهارها[7].

وهذا يعني أن هذا الفن السوفسطائي كان استمراراً لتيار قديم كان سائداً عند الإغريق، ويضم كل أوجه الثقافة، يقرّ ذلك بروتاجوراس قائلاً: ".... وإني أنادي بأن السفسطائية فن عريق، ولكن المشتغلين به في الأزمة القديمة كانوا – بسبب بغض الناس له – يختفون تستراً تحت أسماء مختلفة فيتخذ بعضهم أسم الشعراء مثل هوميروس وهزيود، ويتخذ البعض اسم رجال الدين والأنبياء مثل أورفيوس وموزايوس... وهذا هو مواطنكم آجاثوكليس زعم أنه موسيقي، ولكنه كان في الحقيقة سفسطائياً ضليعاً"[8].

ويلاحظ من خلال النص أن النزعة السوفسطائية كانت سائدة منذ عصر هوميروس وهزيود، ولكن هذا التيار اختفى، وكان وراء الستار في القرن السادس والخامس ق.م.

ولا شك أن الريطوريقا (فن الخطابة) كانت تعتبر فناً من الفنون اليونانية، وهي فن قديم النشأة، ولكن كان الفضل يرجع إلى السفسطائيين إذ عملوا على بلورتها وشد الانتباه إليها باعتبارها فناً.

وكانت الأجزاء الرئيسية التي تميز الريطوريقا بعد أن تطور فنها هي الابتكار والتنظيم والأسلوب، وكان الجزء الأول يمثل الناحية العقلانية في فن الجدل؛ ذلك أن كتّاب الجزء الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد كانوا مغرمين بالتدريبات الجدلية على الرغم من أن حججهم غالباً ما تكون أقرب إلى البساطة.

لقد كان على الخطيب أن يبين ما إذا كان الحديث الذي يتناوله لائقاً أو عادلاً من الناحية الموضوعية، وعما إذا كان ممكناً ومجلبة للشرف أو على العكس من ذلك، ويقدم أدلته عما يقول، كان هذا هو العرف السائد بين الكتاب في القرن الخامس قبل الميلاد، كما يظهر في موضوع مسرحية أنيتجوني لسوفكليس عن طبيعة العدالة وعلاقتها بالقانون المدّون، وكما كان الحال في مؤلفات ثوكيديس ومعظم مسرحيات يوريبيدس، وانطلاقاً من نقطة البحث عما هو لائق وما هو عادل حاول خطيب القرن الخامس قبل الميلاد البحث عن أسلوب أو مفهوم عقلي جديد لتفسير سلوك الفرد أو الدولة، وكان هذا الأسلوب الجديد هو صيغ الاحتمال Probability، وينسب أفلاطون إلى جورجياس مناقشة موضوع الاحتمال، كما يقول بأن تيسياس قد ساهم بنصيب في هذا الأمر[9]، إذ إنهما كانا يبجلان الاحتمال أكثر من تبجيلهما للحقيقة التي قد تكون هي ذاتها غير قابلة للاحتمال Improbable، ولقد كانت المناقشات القائمة على الاحتمال معروفة في أثينا قبل وصول جورجياس إليها عام 427ق.م، فعلى سبيل المثال نجد أن "كريون" يجادل بأنه لم تكن له دوافع كي يحل نفسه في مكان أو ديب كملك ويبني جدله على الاحتمال... وقد ارتبط الجدل الاحتمالي الذي كان من نتاج الريطوريقا بالسفسطائيين، ولما جاء أرسطو اقتبس من الجدل الاحتمالي وحوّله إلى فن متكامل، وكان الجدل الاحتمالي يعتبر سيفاً ذا حدين، فبواسطته كان يستطيع كل من القوي والضعيف أن يحاور ويداور أمام الهيئات القضائية، ومن ثم فقد عرف عنه أنه يمكن من الوصول إلى الإقناع بأدنى مجهود يقوم به الخطيب، وأنه يعطي فرصة للحركة الخطابية السريعة والالتفاف حول القانون لدرجة أنه لا تكون هناك حاجة إلى شهود أمام هيئة القضاء في كثير من الأحيان.

ولقد كان الدليل الثاني من دلائل ميلاد الريطوريقا ذلك التقسيم الجديد لأجزاء الحديث إلى بداية ووسط ونهاية، وكل جزء من هذه الأجزاء يختص بمهمة محددة، وتربط بينها وحدة

فنية، وقد كان من نتيجة ذلك الفصل بين السرد والبراهين، حتى يكون في أماكن المستعمين وعلى الأخص القضاة الوصول إلى أكبر درجة من الوضوح، وأخيراً تأتي الخاتمة Epilogue حيث يلخص فيها الخطيب نقاط الحديث الرئيسية، ويحاول أن يصل بالمستمعين إلى الإقناع الذي يكون عادة عاطفياً[10].

وإذا كنا نقول بأن الأسس التي قام عليها فن الريطوريقا (الخطابة) قد وضح الاهتمام بها في القرن الخامس ق.م وما يليه، فأننا لا نستطيع أن ننكر أنها ظهرت عند هوميروس، ونسوق على سبيل المثال الحوار الذي دار بين الآلهة وقول فينكس Phoenix أنه قد ذهب ليعلم أخيل لبقا يكون متكلماً ليقفاً ورجل عمل، ما يدل على أنه كان هناك نوع من تعليم فن الريطوريقا، وكان مينلاوس يوصف بأنه محدث لبق، ولكنه شديد الايجاز، بينما اود ييسيوس خطيباً مفوها تجري الكلمات على لسانه كسيل عدم، كما كانت بساطة أحاديث مينلاوس وسمو أسلوب أوديسيوس مضرب المثل، واتصف حديث البطل نستور بالعذوبة في الأسلوب، وإذا صح أن نسمي مثل هذه المواضيع في "الألياذة" التي تشير إلى فن الريطوريقا عند هوميروس بأنها دليل على قدم نشأتها منذ العصور الأولى، فإنه من الواضح أن الريطوريقا عند هوميروس كانت ذات براهين بسيطة لا ترتفع إلى مستوى الجدل الفني في كثير من الأحيان، وإن كانت لا تخلو من مواضيع يسمو فيها سمواً رفيعاً يقرب من ذلك المستوى الذي يتحدث عنه أرسطو كمقياس لهذا الفن.

ولقد تميزت الخطابة في القرن الخامس قبل الميلاد بالاهتمام بما يسمى الأساليب النثرية الجديدة، فكان هناك على الأقل ثلاثة أساليب تظهر بوضوح، أولها ذلك الأسلوب الذي ارتبط بجورجياس وقد تميز بتقليد الاستنباطات الشعرية، وثانيها ذلك الذي ارتبط بثراسيما خوس Thrasychus وهو الأسلوب الذي كان يقوم على بناء إيقاعي منظوم، وثالثها ذلك النوع الذي

كان أعم وأقدم، وتنقصه الخصائص السابقة، ولكنه يمتاز بالولع بالمقابلة Antithesis، أي: المقارنة المتوازنة بين الكلمات والأفكار، ولقد قلد أفلاطون هذا النوع الأخير من الأسلوب في محاورة بروتاجوراس باعتبار أنه إحدى الصفات التي اختص بها هذا السفسطائي واحترامه أيضاً أرسطو، إذ يقول إن أسلوب المقابلة إنما يبعث على السرور والارتياح؛ ذلك أن المتضادات تكون أيسر فهماً وخاصة عندما توضع الواحدة في مواجهة الأخرى(11).

وعلى العموم يلاحظ أن الخطابة قد ارتفعت عند السوفسطائيين جميعاً إلى مرتبة العلم بمعناه الصحيح؛ وذلك راجع خصوصاً إلى أحوال البيئة من ناحية، وإلى مذهبهم من ناحية أخرى، أما في البيئة فقد كانت تطلب من التربية تكوين القادة، والقادة لا تكونهم التربية من أجل أن يرتفعوا إلى مرتبة القيادة فحسب، بل وأيضاً من أجل أن يحتفظوا بالقيادة، وارتفاعهم إلى مرتبة القيادة والاحتفاظ بها لا يمكن أن يتم إلا عن طريق التأثير في الناس، والتأثير في الناس لا يتم أحسن ما يتم إلا عن طريق الخطابة(12).

والآن يمكننا أن ننتقل إلى هذه الفلسفة الجمالية الموجهة لفن القرن الخامس قبل الميلاد عند أعظم سفسطائي هذا العصر، بروتاجوراس الأبديري وجورجياس الليبيونتيبي وغيرهما.

2- فلسفة الجمال والفن عند أعلام الحركة السفسطائية:

1- بروتاجوراس (حوالي 50-411 ق.م) **********

يتصدر لائحة السفاسطة علم من أعلام الفلسفة العملية الجديدة هو بروتاجوراس (Protagoras) الذي ولد في أبديرا حوالي 500ق.م، وتعرّف إلى بركليس الذي عهد إليه بوضع تشريع لمستعمرة ثوريوي (Thourioi) بإيطاليا، كما تتلمذ على مواطنه ديمقريطس، ويبدو أنه ألف عدداً من الآثار الفلسفية التي كانت ما تزال متداولة في عهد أفلاطون، على الرغم من

الرواية القائلة إن الاثنين أمروا بنفيه وإحراق كتبه لاتهامهم إياه بالكفر[13]، منها: في الآلهة في الرياضيات، في الدولة، في الطموح، في الفضائل، في مساوئ البشر، مجموعة من الحكم، ويشير أفلاطون في محاورة ثياتيطوس (TheaTetus) إلى كتاب بروتا جوراس الموسوم بالحقيقة (Aletheia)[14]، وتوفي بروتاجوراس حوالي 411ق.م.

ولعل أشهر الأقوال المنسوبة إلى بروتاجوراس قوله في "الحقيقة"، "الإنسان مقياس كل شيء، الموجود أنه موجود واللاموجود أنه موجود"، وقد فسر أفلاطون في محاورة ثياتيطوس هذا القول بأنه يعني أن ما يظهر للمشاهد هو كما يظهر، "وأن كلاً منا هو مقياس ما هو موجود وما هو غير موجود، والناس مختلفون فيما بينهم من حيث إن الأشياء المختلفة تظهر وتختلف فعلاً بالنسبة إلى مختلف الناس"[15].

وحاصل هذا الكلام أن التجربة أو الحسّ هما مقياس الحقيقة دون سواهما، فإذا اختلفت الأحاسيس والآراء الناجمة عنها، فمن شأن الخطيب (أو السفسطائي) الحاذق أن يدلّل على صحة أي قضية شاء، ومع ذلك لم ينكر بروتاجوراس أن بعض الحجج أفضل من بعض بمعنى نسبي، أو ينكر حقيقة الحكمة ووجود الحكيم، كما يروي أفلاطون في محاورة ثياتيطوس، فالحكيم يتصف بحسب قوله بأنه "عندما يدرك أن شيئاً ما يظهر لنا شراً هو شر بالفعل، فيعمل على إحداث تغيير فينا حتى تظهر الأشياء الخيرة وتوجد فعلاً بالنسبة إلينا"[16]، أي أن من شأن الحكيم باللجوء إلى الوسائل العملية الفعالة أن يغير أوضاع المتأملين أو الأشقياء ويحملهم على توخي الخير، وذلك جزء من ردّ السفاسطة لطبيعة الخير والشر إلى اللذة والألم، واعتقادهم بإمكان إقناع المتألمين، باللجوء إلى الحجة بأن ما يرونه مؤلماً (أو شراً) هو الظاهر، وليس الحقيقة، وأن ما يرونه لاذاً على خلاف ذلك ليس خيراً بالضرورة بل بالظاهر، وبوسع السفسطائي الحاذق في كلا الحالين حمل سامعه على التخلي عن هذا الرأي أو ذاك[17].

ويري بروتاجوراس أن أي رأي مهما يكن غريباً فإنه يمكن أن يكتسب صورة الحق ما دمنا قدمنا عليها البرهان، فاقتنع به السامع، فالحكم الصحيح هو ما يبدو للإنسان محتملاً وصحيحاً، فإن صح هذا، وهو صحيح، فعلى السوفسطائي أن يُعرض عن البحث العلمي الذي لا نفع فيه، ويُكب على معالجة الفن الذي يمكن الإنسان من حمل غيره على ما يريد أن يعتقده، ليتسلط بهذه الطريقة على عقله وشعوره ويوجّه سلوكه وفاقاً لرغائبه[18]، وما هذا الفن إلا فن الخطابة.

ولقد استطاع بروتاجوراس أن يضع الإطار العام لفلسفة الفن والجمال التي بدأت تنتشر مع سياسة الديمقراطية، وكان أهم ما جاء به بروتاجوراس هو تأكيده لنسبية القيم وإرجاعها إلى الإنسان، فعبادته: "الإنسان مقياس كل شيء" قد أظهرت للناس كيف يمكن أن تختلف الحقيقة باختلاف ما يبدو للإنسان منها، كذلك صرح لهم بأن مفاهيمهم عن العدالة والحق والخير والجمال ليست ثابتة مطلقة، ولا ترجع إلى مصدر إلهي، وإنما مرجعها اتفاق الناس ومواضعاتهم، فالفن مفهوماً على هذا الأساس هو نشاط لا يكتسب قيمته الجمالية من التعبير عن مثال مطلق للجمال، ولا هو هبة الآلهة ينفرد الفنان بها لطبيعة فيه تعلو على طبيعة غيره من البشر، إذ ليس الفن سوى مهارة مكتسبة بالخبرة الإنسانية والتعليم، حتى المعاني السياسية للخير والعدالة كلها قابلة للتعليم وموزعة بالتساوي بين جميع الناس[19]، لذلك كان من الطبيعي أن ينشط البحث في وسائل الإقناع، وعلى رأسها اللغة وإمكاناتها التعبيرية؛ لأنها وحدها أداة الإقناع، فلا غرابة بعدئذ أن تشهد الخطابة عصراً من أبهى عصورها إذ صارت إدارة الإقناع التي اعتمد عليه أشهر السفسطائيين.

ويتصل بهذه النظرة تشديد بروتاجوراس على التربية والتعليم، لا سيما تعليم الفضائل العامة ومنها العدالة، وتشديده على العمل السياسي الفعال، فعندما سأله سقراط لدى زيارته الثانية

إلى أثينا –وكان متقدماً في السن– عن ماهية التعليم الذي يتقاضى عليه الرسوم الباهظة أو ماهية الفن الذي يمارسه أجاب: "إذا جاءني (التلميذ) فهو يتعلم ما جاء من أجله، وهو جودة الرأي في تنظيم شؤون منزله وشؤون المدينة (الدولة)، وكيف يصبح رجلاً ذا تأثير في الشؤون العامة، قولاً وفعلاً، مضيفاً بعد ذلك بقليل أنه معلّم يملك "المعرفة التي تجعل المرء نبيلاً وفاضلاً"[20].

وكان قد أشار بروتاجوراس إلى مبادئ التربية في كتابه "عن الفضائل"، ويذكر زيلر Zeller[21] جملاً قليلة أهمها:

- التعليم يحتاج إلى مواهب طبيعية وممارسة.
- ينبغي للإنسان أن يبدأ التعليم في شبابه،لا قيمة ولا أثر للتعليم في الروح دون أن يتغلغل في أعماقها.
- العقاب أمر ضروري من أجل التطوير في حين أن الانتقام أمر مرفوض.

وكانت محاولات بروتاجوراس حديثة في مجال اللغة، فقد تنبه إلى التأنيث والتذكير، وتحدث عن الفعل ومشتقاته واللفظ ومعانيه وأجزاء الكلام وبحث في أصل اللغة، وميز بين زمان الأفعال وصيغتها، وكان أول معلم للمنطق، وهنا تتمثل ولادة النحو عند الإغريق[22]، وعلى طريقة أرسطو قسّم الكلمات بحسب جنسها في المذكر والمؤنث، وميز في الخطاب بين أربعة أقسام: الدعاء أو (التمني)، السؤال، الجواب، والأمر، وقد وجد تناقضاً في البيت الشعري الأول في الإلياذة "أنشدى أيتها الربة في غضب"، صيغة الأمر المستخدمة عند هوميروس والموجهة للإله لم تتطابق بنظره مع التمني الدعاء الذي يتطلبه المعنى، وارتدت صيغة الأمر، الطلب[23].

ويعتبر بروناجوراس أوّل من علم القواعد، وأصبح معروفاً بمهارته في استعمال الكلمات بروّية، وأوّل من تكلم في المعنويات، وأشار إلى الصفات المعنوية مثل الحسن والقبيح والجميل

والـذميم والصـواب والخطـأ، وذلـك بالإضـافة إلـى الصـفات الحسـية كالـدفء والبـرودة والحـلاوة والمرارة.

وبهـذا مهـد بروتـاجوراس الطريـق لقيـام نظريـة فـي الجمـال الفنـي فـي الفلسـفة، وكـان جورجياس أقدر السفسطائيين على تقديم هذه النظرية.

ننتقل بعد هذا إلى جورجياس (حوالي 480–380 ق.م) فنجد أنه قد عرض مذهبه في كتاب كتبه عن "الطبيعة"، أو اللا وجود، فقال فيه بقضايا ثلاث: الأولى أنه لا شيء موجود، والثانية أنه حتى لو وجد شيء، فإن هذا الشيء لا يمكن أن يدرك، والثالثة، حتى لو أمكن إدراكه فإنه لا يمكن أن يعبر عنه ويوصل إلى الغير، ويسوق لتأييد هذه القضايا حججاً كثيرة، وهو في هذا متأثر بالإيلين وخصوصاً بطريقة زينون في المحاجة[24].

وعلى الرغم مما في هذه الحجج من محاكات جدلية لفظية، فإنه يلاحظ أن "جورجياس" اصطنع الجدل الإيلي لكي يبرهن على نقيض القضايا التي نادى بها كل من "بار منيدس" و"زينون"، وبيّن أنه من الممكن استخدام الجدل للبرهان على قضية وعلى نقيضها في وقت واحد، ومضى جورجياس بالشك حتى غايته القصوى، فأنكر وجود مقياس للحقيقة، بذلك فلا فائدة من الفلسفة في رأي جورجياس؛ لأنها تبحث عن الحقيقة المطلقة التي لا وجود لها، ولذلك كانت دعوته إلى هجر الفلسفة وتوجيه الاهتمام إلى أبحاث مفيدة للإنسان، وقد هجرها ليتوفر على الخطابة، ووضع أسسها ومبادئها، ما جعله أرسطو مؤسسها[25].

ولقد اهتم جورجياس بفن الخطابة، ولم يدع مثل بقية السوفسطائيين أنه يعلم الفضيلة، وجعل لفن الخطابة في القرن الخامس ق.م ما كان لفن الشعر قبل ذلك من مكانة في التأثير على الجماهير، فجورجياس يقول: إن الخطابة هي الفن والفن الحقيقي، وليست أداة للتأثير

فحسب، وعلى يديه ترتفع الخطابة إلى مرتبة الفن الحقيقي، وإلى مرتبة الأسلوب الصحيح في التفكير.

وتركز اهتمام جورجياس باعتباره أشهر خطيب سوفسطائي في صياغة العبارة واختيار اللفظ واستعمال الكلمات الشعرية ليؤثر بذلك على المستمع ويتلاعب بعواطفه، وكان يظن أن استعمال الأضداد هو خير وسيلة لتقوية التراكيب، ولذلك أكثر من استخدام الأضداد في خطبه وحاول قدر الإمكان أن يبدأها وينهيها بنغمات متشابهة، ويجعلها متسامية المقاطع، فكان بذلك أول خطيب ينبري لإظهار أهمية الخطابة باعتبارها من أهم مقومات الممثل والسياسي بما لها من قدرة على التأثير والإقناع، وكان يعتبر الألفاظ والمهارة اللفظية ركناً مهماً لا في الخطابة وحسب، بل في التربية والتعليم أيضاً، تستوي في ذلك مع الشعر إن لم تفقه[26]، وتبعاً لهذا يقول عن المعرفة الحقيقية هي تلك الممثلة في الخطابة.

واضطلع السفسطائيون بتعليم فن الخطابة، (الريطوريقا)، وأظهروا تفوقاً بالغاً، حقأن مناسبات معينة كانت تتطلب خطباً معدة من قبل كالخطب التي تلقى في تأبين الشهداء، ولكن الحياة الديمقراطية كانت تتطلب رجلاً يستطيع أن يقنع المؤسسات النيابية المختلفة والمحاكم القضائية على أنواعها، وهذا يتطلب خطاباً مرتجلاً، وكان جورجياس فارس هذا الميدان، وكانت صقيلية منبع أول مظاهرها البارزة، وظل جميع من تعرضوا للريطوريقا بعد جورجياس يسيرون على قواعده التي تتكون من ثلاثة عناصر: المقابلة، وتوازن العبارة، والسجع[27].

كان الأستاذ يعد نموذجاً مكتوباً، ربما يكون موضوعه مستقى من الميثولوجيا، ولكنه يتناول في الوقت نفسه إما الشعر أو الأخلاق أو السياسة، وبعد أن يستمع الطلبة إلى الدرس يقومون بدراسة النموذج وحدهم، وكانت الموضوعات توضع تحت الفحص، ثم يدرب الطلبة على موضوعات مختلفة، وبعد ذلك كان عليهم أن يستخدموا ما تعلموه في موضوعات أخرى مبتكرة،

ولما كانت الريطوريقا تتناول موضوعات متنوعة فقد اهتم السفسطائيون بتعليم تلاميذهم الثقافة العامة أيضاً، سواء ما كان يتصل بالمواد النظرية أو العلوم الطبيعية.

وتتلخص طريقة جورجياس في تعليم الخطابة في أنه كان يعد لتلاميذه نماذج من الخطب يحفظونها عن ظهر قلب ويستعملون ما فيها من عبارات رنانة بحسب الأحوال، وقد انتقده أفلاطون قائلاً: إنه فن لا يطلب الحقيقة، بل يعنى بالظاهر كالطاهي الذي يعمد إلى تزويق الطعام، ويعنى بمظهره حتى يفتح الشهية، ولكنه لا يعرف قيمة الغذاء الحقيقية، وقد انتقده أيضاً أرسطو ساخراً بقوله: إن مثل جورجياس في تعليم الخطابة مثل صانع الأحذية الذي يقدم لصبيانه عدداً كبيراً من الأحذية المصنوعة بدلاً من تعليمهم أسرار صناعتها[28].

ولقد استطاع جورجياس أن يفلسف النظرية الشائعة عن اليونان عن الجمال، ويخرج بها عن الإطار العقلي الذي يربطها بالحقيقة المقدسة الخالدة عند الفلاسفة؛ ولذلك اهتم بتأكيد الدور الذي يلعبه الجمال الفني في التأثير في إحساس الإنسان.

وأهم ما جاء به في مؤلفه "الدفاع عن هيلينا" بالنسبة لنظريته الجمالية هو تحليله لأثر الكلمة أو اللغة "Logos"، في النفس الإنسانية وقدرتها على بعث الأوهام التي تسلب الإنسان إرادته إلى حد أن ينساق إلى أعمال قد لا يقرها العرف بدافع سحر الكلام، يقول جورجياس: إن في اللغة تأثيراً لا يقف عند جو الإقناع العقلي، بل يصل إلى إثارة العواطف وانفعال النفس بتأثير اللغة سببها تماماً بتأثير الحواس والإحساسات العنيفة، ومن قبيل هذه الإحساسات رؤية الجمال، فهيلينا حين أبصرت جمال "باريس" كانت لا بد أن تخضع لإغراء هذا الجمال، ومن ثم أقدمت على الهروب معه.

وتأثير الكلمة سواء في الشعر أو في الخطابة أشبه في رأي جورجياس بأثر الدواء في الجسد، إن أُخذ بحكمة واعتدال كان فيه الشفاء، وإن أسرف في استعماله أضربه[29].

وكذلك تؤثر الفنون التشكيلية في النفس البشرية بما تقدمه للحواس من لذات جمالية، وانتهت نظرية الجمال عند جورجياس إلى ارتباط القيم الجمالية بالنشوة واللذة الحسية.

وننتقل بعد هذا إلى "ثرا سيما خوس" (عاش في النصف الثاني من القرن الخامس ق.م)، وينسب إلى هذا الفيلسوف عدد كبير من الكتب (أو الخطب) في مواضيع خطابية، ويدعى أشهر كتبه "الفن الكبير" الذي كان يدور على مسائل خطابية، أو يتألف من نماذج يسترشد بها الطالب. ويبدو أنه برز في فن التلاعب بعواطف السامعينما حمل سقراط وأفلاطون على مهاجمته، إلا أن أرسطو في كتاب "الخطابة" (الكتب الثاني، فصل 1–12) قد أفرد فصولاً مستفيضة للدور الذي ينبغي أن يسنده الخطيب الفذ للعواطف في مخاطبة الجمهور، ويمكن أن يكون أرسطو قد تأثر في هذا المجال بثراسيما خوس ومدرسته[30].

وأخيراً ننتقل إلى هيبياس (Hippias) من أهالي ليس Elis ومعاصري ثراسيماخوس النصف الثاني من القرن الخامس ق.م ورد اسمه في محاورتي بروتاجوراس والدفاع لأفلاطون، ما يدّل على أنه كان حياً سنة 399ق.م، وقد أفرد له أفلاطون محاورة توسم بهيبياس الكبرى، وينسب إليه عدد من المؤلفات ضاعت جميعها، وكانت تدور على الشعراء القدماء والفلك والهندسة، ولكن معظمها كانت من النوع الخطابي الذي نقرنه عادة باسم السفسطة[31].

وكان هيبياس يعلم أهل إسبرطة الذين لا يحفلون بالخطابة، ويعتمد في ذلك على الأساطير الشائعة وعلى قصائد هوميروس وهزيود في استخلاص تاريخ الإغريق، ولم تقف دراسته عند حد نقد لغة هوميروس ونظمه، بل بحث شخصيات الإلياذة، فذهب إلى أن أخيل أشجعهم، وأود يسيوس أكثرهم دهاءً ومكراً، بينما نسطور أحكمهم[32].

ولكن الصورة التي يرسمها أفلاطون لهذا السفسطائي تتسم بالسخرية؛ وذلك لادعائه المفرط ودعواه أنه قادر على التكلم على أي موضوع على وجه لا يضارعه فيه أحد، ففي محاورة

أفلاطون التي تحمل اسمه تدور حول ماهية الجمال حيث يناقش فيها سقراط فكرة الجمال مع هيبياس، وتعد هذه المحاورة من أوائل أعمال أفلاطون كان هيبياس –خلافاً لبروتاجوراس وجورجياس – لا يجيد فن الحوار أو الجدل، ويتضح ذلك من تحديداته لمفهوم الجمال كما ورد في محاورة "هيبياس الكبرى" حيث يقدم أربعة تعريفات للجمال هي[33]:

التعريف الأول: أن الجميل هو العذراء الجميلة، ويعترض سقراط على هذا التعريف؛ لأن هناك أشياء جميلة كالقيثارة مثلاً، وهي ليست فتاة.

التعريف الثاني: إن الجمال يكون في الأشياء المذهبة، بيد أن تمثال فيدياس الذي صوره عن الإلهة أثينا مع أنه غاية في الجمال فإنه ليس مصنوعاً من الذهب، وإنما من العاج.

التعريف الثالث: أن الجميل هو الملائم، فالملعقة الخشبية أكثر ملاءمة لتناول الحساء الساخن من الملعقة الذهبية.

أما التعريف الرابع: فهو الجميل هو النافع، ويعترض سقراط على هذه التعريفات جميعاً، ولا ينتهي بنتيجة حاسمة.

ولما كان السفسطائيون يواصلون تعليمهم، افتتح "إيزقراط" مدرسة تعليمية حوالي عام 390 ق.م، تسير على نهج هؤلاء السفسطائيين، ومن المعروف أن إيزقراط قد تتلمذ على السفسطائي جورجياس، ومن ثم اتبع نفس أسلوبه في الخطابة، وأخذ عنه فكرة القيمة التعليمية لفن الريطوريقا، ويمكننا أن نستدل من أحاديث إيزقراط نفسه أنه كان يعتقد بأن الريطوريقا هي الأساس الأول في تكوين العقلية المتعلمة والمثقفة، وكانت الفضيلة في نظره تعادل الريطوريقا أو العكس بالعكس، وكل شخص يملك ناصية كلماته، ويعرف كيف يحركها ويستخدمها في موضع سواء أكان في مجلس عام أم في ساحة المحاكم أم في مواضيع الصداقة أم الخصومة، إنما يكون قد استحوذ على كل الفضائل (Isocy. panath: 30.32). ويرى إيزقراط أنه لا يمكن

حدوث شيء إلا بمساعدة الحديث، وأنه في أفعالنا وأفكارنا يكون الحديث هو المرشد والدليل، وأعقل الناس من كانت الريطوريقا هي القائد والمرشد له. (Isocy. Nicoles, 9)، وفي كلمة موجزة كانت الريطوريقا تمثل كل شيء طيب بالنسبة لإيزقراط.

وكان إيزقراط يهدف من تعليمه تخريج أشخاص ذوي كفاءة عالية في الحياة المدنية والقيادة السياسية والقدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة (Isocy: panatn: 30-32)، وكان يعتقد أن السلاح الذي يمكن أن يحقق هذا الهدف هو الريطوريقا، وكان الشخص الذي يمكنه التغلب على الخصوم وإقناع القضاة والمجالس العامة ويستحوذ على حس الأصدقاء والأعداء بكل السبل هو الشخص الأفضل، كان هذا هو جوهر تعليم إيزاقراط، وكان هذا هو ما تضمنه وما درسّه لتلاميذه على شكل كتب أو نماذج معدّة للخطب المعروفة التي يحفظها الدارسون عن ظهر قلب بعد مناقشتها مع معلمهم سواء أكانت هذه الخطب قضائية أو رثائية أو سياسية، وبعد أن يجيد الطالب دراسة هذه المواضيع الثابتة التي تشابه تماماً فن الشعر بما يحتويه من أساطير ومواضيع عامة وترك الطالب يتعلم كيف يتحرك حسب مقتضيات الظرف التي يقف فيه متحدثاً، وأحياناً يعلم المدرس تلاميذه عن طريق السؤال والجواب، ولكن حتى في هذه الحالة كان الموضوع يمليء على الدارسين بطريقة أو بأخرى؛ ذلك لأن الموضوع غالباً ما يكون قلباً وقالباً من تكوين المعلم ولا يشترك فيه التلاميذ بقدر يذكر، ولقد شاع هذا المنهج، وانتشر، وأضحى الأساس لكل الريطوريقا في ذلك الوقت.

ولكن لا ينبغي أن ننسى أن إيزقراط قد أعطى أهمية كبرى للثقافة العامة مبيناً أهميتها في خدمتهم في الحياة العامة والخاصة... ومن المواد التعليمية التي ضمنها إيزقراط منهاج التعليم فنون الجدل والرياضة والعلوم الطبيعية والفلسفة والهندسة وكذلك الألعاب الرياضية، وبهذا يكون إيزقراط قد جمع رياضة العقل ورياضة الجسم[34].

وكانت النتيجة الطبيعية أن يخضع فن الخطابة لقالب تقليدي طبع نفسه وترك بصمات واضحة على هذا الفن، وتغلب تعاليم السفسطائيين في كل فروع الخطابة، ففي الخطب القضائية والسياسية كان الخطيب المراوغ الذي يبذل كل جهده ليكسب قضيته بكل الوسائل هو المنتصر، ولا تراعى في مثل هذه أوجه الحقيقة أو الدقة، وفي الخطب الرثائية كان على المتحدث أن يكون عالماً بالمواضيع الشائعة والتقليدية، ثم يضيف عليها المبتذل من المدائح[35]، وما دامت الرياطوريقا تعادل الفضيلة والحكمة، يكون الاهتمام بفنون الريطوريقا المتبعة في مدارس السفسطائيين ومن ساروا على دربهم هو محل الاهتمام الأول.

تعقيب:

لم تكمن السوفسطائية مدرسة فلسفية كالفيثاغورية أو الإيلية؛لذلك لم تكن لهم مدارس يختلف إليها التلاميذ، بل كانوا ينزلون في بيوت الأثرياء في أثينا مثل (كالياس) الذي نزل عنده (بروتاجوراس) و(كاليكليس) الذي نزل عنده (جورجياس)، وفي بعض الأحيان كانوا يلقون محاضرات في أماكن عامة لقاء أجر للدخول، كما كانوا ينتهزون فرصة الألعاب الأولمبية والأعياد اليونانية ليعرضوا فنهم على الوافدين من جميع المدن كما كان يفعل شعراء الجاهلية في سوق عكاظ[36].

والحاصل أن السوفسطائيين قوم، يتفقون في خاصية واحدة هي أنهم معلمون متجولون يتناولون الأجر على التعليم، ويدّعون القدرة على كل علم وعلى تعليمه في أقرب وقت، مع أنهم أجمعوا على أنه لا علم في الحقيقة ولا حكمة، وأن قصارى ما يدركه الإنسان من الوجود على فرض وجوده هو ما يدركه بحاساته الخمسة، ولما كان الإدراك الحسي مما يختلف بين الناس من إنسان إلى إنسان، بل وفي الإنسان الواحد باختلاف الأوقات والصحة والمرض، وهو مع ذلك

يتغير تغيراً مستمراً، فقد لزم من ذلك أنه لا حق ولا باطل، ولا خير ولا شر، بل كل ذلك مما تواطأ الناس عليه ليستقيم به معاشهم، ويكفي بعضهم شر بعض، وهو في نفسه أمر ليس بموجود طباعاً[37].

وبعد إجماعهم على هذه الأصول فقد اختلفوا في الفروع. فذهب بروتاجوراس إلى أنه ما ظهر لكل واحد حقاً فهو حق بالنسبة إليه، فقال: إن الإنسان مقياس الأمور في وجودها، وفي عدم وجودها، أي ما رآه كل واحد موجوداً، فهو عنده موجود، وما رآه معدوماً فهو بالقياس إليه معدوم، ولا يتعدى هذا الحكم إلى غيره.

وذهبت طائفة أخرى اشتهرت باسم: جورجياس إلى أنه لما كانت الأشياء في حكم التغيير الدائم، فلا يتمكن الإنسان في إدراك الحق بوجه، وغاية ما يقدر عليه أن يقتصر على ما يدركه في كل أن من ظواهر الأشياء لا يتعدى حكمه فيها إلى ما يدركه في آن آخر، ولا يقول بوجود شيء البتة؛ إذ حقيقة الأشياء على فرض وجودها مما لا طاقة للبشرية عليه[38].

فإذن، لم تكن السفسطائية تياراً فلسفياً متجانساً، ولكن ممثليها على اختلاف مشار بهم، قالوا بنسبية كافة المفاهيم البشرية، بما فيها المعايير والقيم الأخلاقية والجمالية.

وترجع الزراية التي تلصق اليوم بكلمة "سوفسطائي" إلى الدعاية الماهرة التي شنها أفلاطون وأرسطو ضد منافسيهما من السوفسطائيين، وكان الإتهام الأساسي أن السوفسطائيين زعموا أنهم يعلمون المعرفة، بينما كانوا يقومون بتدريس فن النجاح في الحياة، وهو أمر أدى إلى التهاون في القيم العليا[39]، وتحت تأثيرهما (أفلاطون وأرسطو) اعتبرت حركة السفسطائيين حركة هدم وتمويه بل هي ضرب من الجدل والتلاعب اللفظي، فهي بعيدة عن الحقيقة والفلسفة، وغايتها الوصول إلى الإقناع طبقاً للطلب وحسب الحاجة، تباع فيه المعرفة وتُشترى. يقول أفلاطون في محاورة السفسطائي "هكذا يا صديقي، نجد حال أولئك الذين يجوبون المدن، فيبيعون

سلعهم جملة وتفصيلاً لأي كان في حاجة إليه، فإذا كنت تستطيع أن تفرّق بين الشر والخير، ففي قدرتك أن تشتري المعرفة منهم" يعني ذلك أن السفسطائي – حسب أفلاطون – صورة زائفة للفيلسوف، همّه الوحيد تعليم فن الخطابة وأخلاق النجاح والمتعة والمنفعة وتأكيد الذات؛ وذلك للارتزاق و"اقتناص الناس من ذوي الحب والمال"[40]؛ ذلك أن أفلاطون يصف السوفسطائي بأنه يتصف بالجشع المادي أكثر من اتصافه بحبه للعلم، وذلك لأنه يبيع العلم في مقابل المادة، والعلم السوفسطائي – حسب أفلاطون – علم زائف ومضلل ومفسد للعقول، فالعلم في نظر سقراط وأفلاطون أسمى من أن يتقاضى عليه المعلم أجراً.... ويذكر أرسطو أن السوفسطائي متراء بالحكمة بانتحاله إياها، ويبحث عن المال من خلالها[41].

والحق، لم يكن هذا النقد ليخلو من بعض الحقيقة، فقد بالغ معلمو الفلسفة الجديدة في التأكيد على نسبية المعارف كلها، فهدموا القيم الإنسانية في مجال الدين والأخلاق، وأثاروا الشكوك حول الأنظمة والسلطات الدينية القائمة وكذلك الأسرة والدولة، وزعزعوا كيان التربية، فأثاروا بذلك العديد من المشكلات، ونفوا أن يكون ثمة حق بذاته وباطل بذاته، خير بذاته وشر بذاته، وتفاخروا بأنهم يستطيعون إثبات الرأي ونقيضه على السواء، وقد أشار لينين بهذا الصدد إلى أن السفسطائيين استخدموا على نحو ذاتي مرونة المفاهيم وشموليتهما، وهي المرونة التي تصل حتى وحدة الأضداد[42].

ولقد عرف المسلمون اسم السوفسطائية، كما عرفوا مذاهبها، ووضعوا السوفسطايين تحت اسم مبطلي الحقائق، وعرفوا شكهم في العقليات والحسيات، واعتبارهم الوهميات فقط هي مقياس المعرفة الإنسانية، ولم يدرك الإسلاميون ما أدركه مؤرخو الفلسفة المحدثون من أن السوفسطائية كانت تبشيراً بعصر تنوير حاسم في الفكر الإنساني، وأنهم أول من شك في قيمة المعرفة الإنسانية، ونقدوا هذه المعرفة ووسائلها، كانت الحركة السوفسطائية –كما نعلم – أول محاولة

إنسانية لعودة العقل إلى ذاته وانعكاسه على نفسه[43]، ولكن أفلاطون أولاً ثم أرسطو ثانياً شوها تاريخ السوفسطائية، وكاناهما مصدري المسلمين، فعرف المسلمون مذاهبها من خلال هذين الفيلسوفين، وقسموها إلى ثلاثة أقسام:

مذهب بروتاجوراس ""العندية"، ومذهب جورجياس "العنادية"، ومذهب بيرون "اللا أدرية"، إن قوماً يظنون أن السوفسطائية قوم لهم نحلة ويتشعبون إلى ثلاث طوائف: اللا أدرية: وهم الذين يقولون: نحن شاكون، وشاكون في أنا شاكون، والعندية: وهم الذين يقولون: ما من قضية بديهية أو نظرية إلا ولها معارضة، أو مقاومة مثلها في القوة والقبول عند الأذهان. والعنادية: وهم الذين يقولون: مذهب كل قوم حق بالقياس إليهم، أو باطل بالقياس إلى خصومهم، وقد يكون طرف النقيض حقاً بالقياس إلى شخصين، وليس في نفس الأمر شيء بحق[44].

وقد أصاب الشريف المرتضى، فقال: "السوفسطائية طائفة من حكماء اليونان، ينكرون حقائق الأشياء، ويزعمون أنه ليس هاهنا ماهيات مختلفة وحقائق متمايزة فضلاً عن تصافها بالوجود... بل كلها أوهام لا أصل لها[45]". وقال ابن حزم: "مبطلو الحقائق وهم السوفسطائية، ذكر من سلف من المتكلمين أنهم على ثلاثة أصناف: فصنف منهم نفي الحقائق جملة، وصنف منهم شكوا فيها. وصنف منهم قالوا: هي حق عند من هي عنده حق، وباطل عند من هي عنده باطل"[46].

وقد عرفت الفلسفة الإسلامية هذه الحركة، فالكندي كتب رسالة يفنّد فيها السفسطائية يدعو إلى في الاحتراس من خدع السفسطائية وهي مفقودة، كذلك وضع الفارابي كتابين ينقد فيهما الفكر السفسطائي، وهما كتاب "شرح المغالطة" وكتاب "المغالطين"، ووضع بن سينا رسالة بعنوان (السفسطة) حدّد فيها السفسطائية بأنها نوع من الأغاليط والخداع والاستدلال الباطل، يقول بن سينا: "ولولا ضعف المجيب لما كان للسفسطائية صناعة التي هي صناعة لا تنتهي

إلى غرض محصل واجب، فإنها وإن حاولت المناقضة وتكلّفتها فإنها غير محققة لا تنال ما تتكلفه، وأقل عيبها أنها لا تنال ذلك فلا تفيذ وكيف لا تكون كذلك وهي مع أنها لا تفيد ليست بسبب لفائدة فلا تعسر على المستفيد الاستفادة وتشوش على العالم العلم بما تورد من الشك، فهذه صناعة معدّة نحو الظن والتخيل والمحاكاة ومبتدئة منها، وبذلك يروج على السامع وعلى المجيب"[47].

يستخلص من هذه النظرة السريعة لعناوين بعض الرسائل التي كتبت عن السفسطائية في الفلسفة العربية الإسلامية أن الفلاسفة العرب لم ينظروا إلى السفسطائية إلا من ناحية أنها تمويه الحقائق ونوع من الاستدلال الباطل، وتجاهلوا كلياً ما قدمته السفسطائية من فكر ومعارف.

وأخيراً، فالسوفسطائية رغم كل ما يقال فيها هي فلسفة حضارة، فلسفة بناءه ثورة على السلبية وطريقة التفلسف الساذج التي تجعل الإنسان مجرد كائن متفرج أشبه بجهاز للتسجيل لا دخل له فيما يجري خارجه من أحداث، وما قدر القدماء هذه الحركة حق قدرها، فراحوا يضربونها في المهد قبل أن يستفحل خطرها؛ لأنهم لم يفهموها، ولم يدركوا المعنى العميق الذي ترمز إليه: هاجمها سقراط وأفلاطون وأرسطو (كما رأينا) تماماً، كما هوجم كوبرنيق لا لشيء إلا لأنه قد عرف الحق فجهر به، إنها دعوة طليعية جريئة حقاً لم تسلم من بعض المخاطر، فكل مخاض له مخاطرة[48]؛ لذلك حق على الكثير من مؤرخي الفلسفة المحدثين أن يقارنوا بين قرن السوفسطائيين وحال أوروبا في القرن الثامن عشر، فهما يتصفان بصفات متشابهة، وهذه الصفات تتلخص فيما يلي:[49]

1. الإيمان بالتقدم المستمر نحو الغاية الأصلية للإنسانية.
2. جعل العقل الحكم المطلوب في كل شيء.
3. إخضاع كل العقائد والتقاليد الموروثة لحكم العقل.

4. النزعة الفردية التي تجعل من الفرد من حيث حريته واستقلاله الأساس لكل تقديم سواء أكان ذلك في الفن أم في الأخلاق أم في العلم أم في الدين، وهذه الخصاص نجدها واضحة في كلا القرنين، وهذا يدفعنا إلى القول بأن قرن السوفسطائية هو قرن التنوير في الحضارة اليونانية.

ويلاحظ مع هذا أن حركة السوفسطائيين كانت تقدم لتاريخ الفن صورة لما سوف يظهر في أواخر القرن التاسع عشر من نزعه إنسانية وضعية، ومن اتجاه نحو التأثيرية أو الانطباعية Impersionism التي تأخذ بتسجيل الإحساسات الذاتية إزاء ظواهر الإدراك الحسي والتي طالبت بأن يكون معيار الجمال في التصوير هو تسجيل اللحظة الحاضرة[50].

ويلاحظ أيضاً أن هناك كثيراً من الشبه بين النزعة السوفسطائية عصر النهضة، والواقع أن هاتين النزعتين متوافقتان – على حد تعبير اشنبجلر– في كل من الحضارتين اليونانية والأوروبية؛ وذلك لأن أوجه الشبه بين الحركتين أو النزعتين كثيرة، فنزعة عصر النهضة تسمى نزعة إنسانية؛ لأنها أرجعت المعايير للإنسان، واحتفلت له احتفالاً شديداً، وكذلك فعل السوفسطائيون: إذ نقلوا البحث من الطبيعة الخارجية إلى الإنسان، وأرجعوا مصادر القيم –ماكان من هذه القيم متصلاً بالحق، وما كان متصلاً بالجمال والخير – إلى الإنسان نفسه بحسبانه المقوّم الأكبر والمشرّع الأول والأخير.

بل إن في عناية رجال عصر النهضة بالآثار الأدبية القديمة ما يشبه تمام الشبه عناية السوفسطائيين بالآثار الأدبية اليونانية، وباستئناف التيار الأدبي الذي كان سائداً في بلاد اليونان من قبل[51]، ولهذا نراهم عنوا عناية كبيرة بالناحية الشكلية كالخطابة والنثر.

الخاتمة:

مما تقدم توصل الباحث إلى النتائج التالية:

1- أثرت السوفسطائية تأثيراً بالغاً في سائر جوانب الفكر الإنساني، في الفلسفة واللغة والأدب والنقد والتاريخ والاجتماع والسياسة، فقد وجهت النظر إلى دراسة الإنسان بدلاً من الطبيعة الخارجية، وبذلك أصبحت السوفسطائية تمثل نقطة تحول هامة وخطيرة في تاريخ الفكر الفلسفي؛ لأنها نقلت الفلسفة اليونانية من السطحية إلى العمق، ومن البساطة إلى التعقيد، ومن محيط الدائرة إلى مركزها، فأصبح الإنسان بفضل هذه الخطوة الجبارة في صميم الأشياء بعد أن كان بعيداً عنها، وبالإضافة إلى ذلك فقد وضعت أسس التعليم النظامي للشباب، كما أنها قد ابتكرت ألواناً مختلفة من الأدب لم تكن معروفة، وكشفت النقاب عن تذوق الأدب وسر الجمال فيه وأساليب الصناعة، كما تركت السوفسطائية أثراً كبيراً على كتاب التراجيديا والكوميديا في القرن الخامس ق.م الذي شهدت فيه أثينا عدداً من نوابغ الرجال في الأدب والتاريخ على حد سواء.

2- أما في الفن، فقد أجمع السوفسطائيون على تمجيد فن الخطابة، وقالوا إن مهنة الخطابة توصل إلى جميع الغايات التي ينشدها الإنسان، فالخطابة قادرة على تجديد النفوس وبناء عالم جديد، ومع هذا لم ينظر السوفسطائيون إلى الخطابة بوجه عام على أنها جدل أو وسيلة للتأثير فحسب، بل وأيضاً على أنها العلم الحقيقي، فجورجياس يرتفع بالخطابة إلى مرتبة الأسلوب الصحيح في التفكير، وعند ثراسيماخوس تصبح الخطابة نظرة في الوجود ونظرة في السياسة، وعند أنيتفون أصبحت الخطابة طب النفوس، والوسيلة التي بها ترتفع الحياة الباطنة ارتفاعاً كبيراً. وعند هيبياس أصبحت الخطابة ارتفاعاً بالروح ولطفاً فيها وسمواً في التفكير العقلي.

3- ولقد أنزل بروتاجوراس قيمة الجمال في مجمل نظرته النسبية إلى القيم الإنسانية وفق مذهبه القائل: إن "الإنسان معيار كل شيء"، وأما جورجياس، فصاغ نظرته في الجمال مبتعداً عن ربطها بفكرة الحقيقة، وهذا ما يفسر تشديده على الخطابة وليس على الشعر، فالخطابة بسحر تراكيبها اللغوية تتجاوز الإقناع العقلي إلى حد إثارة الانفعالات والعواطف وسلب الإنسان إرادته. وغاية العمل الفني بحسب هذه الفلسفة الحسية إرضاء المتذوق، وإن حمل ذلك تمويهاً أو بعداً عن الحقيقة أو الواجب.

كان أكثر السفسطائيين يأخذون بموقف نقدي من التراث، فقد أرجعوا القيم جميعاً سواء منها القيم الأخلاقية أو الفنية إلى المصدر الإنساني، وبناء على ذلك فقد نظروا إلى الفن على أنه ظاهرة إنسانية، ولا يرجع إلى أصل الدين أو مصدر مقدس، كذلك وضح لهم أن القيم الجمالية يمكن أن تتغير بتغير ظروف الحياة الإنسانية وبحسب اختلاف الزمان والمكان.

وأخيراً لم تكن السفسطائية تياراً فلسفياً متجانساً، ولكن ممثليها على اختلاف مشاربهم، قالوا بنسبية كافة المفاهيم البشرية، بما فيها المعايير والقيم الأخلاقية والجمالية، وأجمعوا أيضاً على تمجيد فن الكلام والبلاغة، وقالوا إن مهنة الخطابة توصل إلى جميع الغايات التي ينشدها الإنسان.

هوامش البحث:

(1) برتراند راسل: حكمة الغرب، ترجمة: فؤاد زكريا، جزءان، سلسلة عالم المعارف، الكويت، 2009، ص91.

(2) أحمد أمين، زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة "اليونانية"، مطبعة، دار الكتب المصرية، 1935، ص93.

(3) كان اليونانيون يرون أن للفنون ربات؛ ذلك أن الأسطورة اليونانية تروي أنه كان لكبير الآلهة "زوس" القابع على جبل الأولمب – كاتب له تسع بنات هن ربات الفنون، وتسمهين الأسطورة The Muses، وكل ربة من هذه الربات تختص برعاية فن من الفنون، فللشعر ربة، للخطابة ربة، وللدراما، وللكوميديا، وهكذا، وكانت مدرسة أفلاطون تحتفل بعيد هذه الربات كل عام، ويقوم تلاميذ المدرسة في الأكاديمية بطقوس شبه دينية موجهة إلى الربات، وكان هذا الاحتفال يجري سنوياً حتى عهد الإمبراطور جستيان في أوائل القرن الثالث الميلادي – ولعل هذا الاحتفال يرجع بنا إلى الأورفية القديمة وطقوسها حيث كان – يحتفل أتباعها بعيد الإله باخوس إله الخمر وقطاف العنب، وكان ذلك في فترة الربيع حيث تكتسي الطبيعة أثواباً في الجمال الرائع، وتنتشي فيها الحياة بجميع صورها سواء في ذلك الكائنات الحية أو الطبيعية (عن كتاب فلسفة الجمال للدكتور محمد علي أبوريان، الدار القومية للطباعة والنشر، 1964، ص 13–14).

(4)السوفسطائي (Sophostes) sophist معناها في الأصل العالم في فن أو مهنة، ثم أصبح معناها الرجل الحكيم، وقد أطلقها (بندار) قديماً على طائفة الشعراء الموسيقيين، وأطلقها (يوربيدس) على الموسيقيين، بينما أطلقها (أبقراط) على الفلاسفة الطبيعيين، كما أنها أطلقت على الحكماء السبعة (أنظر: W.K.CuTnrie, The sophists, univerdity prees, Cambridge 1971, p. 27-30.)

(5) محمد غلاب، الفكر اليوناني أو الأدب الهليني، الجزء الأول، نشأة الأدب اليوناني، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1952، ص176.

(6) ولعل أعظم ما وصل إلينا منها شأنا ما تراه عند شاعر الملاهي المسرحية "أرستوفانيس" (448–380ق.م) في مسرحيته "الضفادع"، وقد مثلت لأول مرة حوالي عام 405 ق.م،

وموضوعها سخرية المؤلف من شاعر المآسى المسرحية العظيم "يور بيدس" الذي كان قد توفي قبل تمثيل المسرحية بعام، وفي هذه الملهاة ترى رحلة... ديونيسوس إله المسرح عند اليونان إلى الدار الآخرة "هادس Hades ليعيد إلى الحياة "يور بيدس" بعد موته. وأثناء عبوره في للعالم الآخرة (ستيكس Styx) كانت جوقة من الضفادع تصحب أصوات المجاديف في الماء بأغنية من أعذب الأغاني، وفي ذلك العالم الآخر تقوم مناظرة أدبية بين الشاعرين اليونانيين "يور بيدس" و"إسنخيلوس" وفي هذه المناظرة ذات الطابع الهزلي يتراءى مضمون جدي يشف عن آراء جمالية وفنية تمثل ما كان رائجاً منذ عهد "بركليس" (499–429م) عصر أثينا الذهبي، إذ نرى في هذه المناظرة مسرحيات "إسنخيلوس" موضع إعجاب؛ لأنه داعية الفضائل الدينية والتقليدية في مسرحياته، ويهاجم "أرستوفانيس" في هذه المناظرة "يوربيدس" بأنه هدم مبادئ الدين والخلق التقليدية بثقافته السوفسطائية، وصور في مسرحه الآلهة والأبطال نهباً للنقائص والعيوب التي يتعرض لها عامة الناس، فتفي بذلك على قداستهم، ويظهر في هذا إقرار المؤلف لرسالة الشعر والمسرح الخلقية والاجتماعية، هذا إلى أنه في المناظرة نفسها يعيب "أرستوفانس" على يوربيدس تكلفه في الأسلوب وميوله المسرحية التي يجافي بها طبيعة الفن. وتنتهي مسرحية "الضفادع" بهزيمة "يوربيدس" للعيوب الفنية والخلقية السابقة في مسرحياته، ويقتنع "ديونيسوس" بأن أسخيلوس أفضل منه، فيقوده إلى الأرض ليرشد بمسرحياته الأثينيين الضالين أنظر: محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت – لبنان، 1973، ص28.

(7)W.K.C.CUTHRIE.OP.CIT, P P29-30.

(8) أفلاطون: محاورة بروفاجوراس، فقرة 316، ص51.

(9) أفلاطون: محاورة فيدروس، فترة 276.

(10) عبدالله المسلمي: أفلاطون، منشورات الجامعة الليبية، 1973، ص98–99.

(11) عبدالله حسن المسلمي: أفلاطون، مرجع سبق ذكره، ص99–102.

(12) عبدالرحمن بدوي، ربيع الفكر اليوناني، مركز عبدالرحمن بدوي، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010، ص172.

(13) ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1991، ص54.

(14) أفلاطون: محاورة ثياتيطوس (152أ).

(15) أفلاطون: محاورة ثياتيطوس (166 ت).

(16) أفلاطون: محاورة ثياتيطوس (166 ت).

(17) ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية، منشورات دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1982، ص55.

(18) حنا الفاخوري، وخليل الجر: تاريخ الفلسفة العربية – الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص60.

(19) بينمامين جويت: بروتاجوراس لأفلاطون، ترجمة: عمر كمال الدين علي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (د.ت)، ص23.

(20) ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سبق ذكره، ص56.

(21)Zeller, E. outlunes of the history of creekphilosophy, New –york. P.83.

(22)Cilbert. Marray: creek studies clorandon press. 1946, p. 178-178.

(23) ثيوكاديس كيسدس: سقراط، ترجمة: طلال السهيل، ط1، دار الفارابي، 1987، ص ص 110–111.

(24) عبدالرحمن بدوي، ربيع الفكر اليوناني، ص176.

(25) كريم متى: الفلسفة اليونانية، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1371، ص123.

(26) محمد صقر خفاجة: تاريخ الأدب اليوناني، الناشر:مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956، ص141.

(27) عبدالله المسلمي: أفلاطون، مرجع سبق ذكره، ص24–25.

(28) أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1954، ص286.

(29) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال،دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص24.

(30) ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سبق ذكره، ص59.

(31) المرجع السابق، ص61.

(32) أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتاب العربي، 1954، ص301.

(33) المرجع السابق، ص301، 302.

(34) عبدالله حسن المسلمي: أفلاطون، منشورات الجامعة الليبية، 1973، ص 30– 31.

(35) عبدالله حسن المسلمي: أفلاطون، منشورات الجامعة الليبية، 1973، ص116.

(36) أحمد فؤاد الأهواتي: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتاب العربي، 1954، ص295.

(37) دافيد سيا نتلانا: المذاهب اليونانية الفلسفية (في العالم الإسلامي) حققه وقدم له: محمد جلال شرف، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص39.

(38) المرجع السابق، ص40.

(39) الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، بيروت، نقلها عن الإنجليزية: فؤاد كامل وآخرون، ص267.

(40) الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، ط1، 1988، المجلد الثاني، ص724.

(41) عبدالرحمن بدوي: منطق أرسطو، 747/3.

(42) موجز تاريخ الفلسفة، تأليف جماعة من الأساتذة السوفيات، ترجمة: د. توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت – لبنان، 1989، ص57.

(43) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، دار المعارف – القاهرة، ط3، (د.ت)، ص162–163.

(44) الطوسي: "حاشية على محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للمازي"، ص23.

(45) الشريف المرتضى: في الإتحاف، مجلد 9، ص418.

(46) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، مصر، 1347هـ، مجلد 1، ص8.

(47) ابن سينا: كتاب الشفاء – المنطق – السفسطة، المقالة الأولى، الفصل الرابع، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة، 1958.

(48) محمد عبدالرحمن مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة العربية، ص91.

(49) عبدالرحمن بدوي، ربيع الفكر اليوناني، مرجع سبق ذكره، ص180.

(50) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سابق، ص21.

(51) عبدالرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني، ص180.